الرأى والذين يستطيعون الفصل فى مثل هذه المسائل، ومع هذا فانه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل فى الحركة والاحساس. ومهما يكن فلعل هذه الآراء هى منبع تعريف العقل المشهور الذى يردده المتأخرون من مؤلفى العرب، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله فى القلب ولها شعاع متصل بالدماغ

لا نظن أنا فى حاجة الى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فان كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الابنيما وما يتفرع عنها، ودراسة الجهاز العصبى الحديثة لا تدع مجالا لتلك الآراء التى كانت تعد القلب المركز الرئيسى للحياة النفسية. والنظرية القائلة بتوزيع المخ الى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص، وإن كانت قد صادفت أنصارا عديدين فى القرن التاسع عشر، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعا. على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظرى، ويخلط المادى بالروحى دون أن يوضح كيف يتفاعلان؛ والصعوبة كل الصعوبة فى توضيح هذا التفاعل. فهو اذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم يأتنا فيها بجديد؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكارا أرسطية الى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تنافر أو تعارض.

(يتبع) ابراهيم مدكور

الحاكم بأمر الله

واسرار الدعوة الفاطميـــة

بقلم محمد عبد الله عنان

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بامر الله، وشخصيته العجيبة، وحياته المدهشة، واختفائه المؤسى؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

ثمنه ٢٠ قرشا والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج

ويطلب من المؤلف بعنوانه بشارع الهامى نمرة ٢١ ومن مجلة الرسالة ومكتبة النهضة بشارع المدابغ وسائر المكاتب الاخرى

فى الأدب المقارن

القصص

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستماع بسماعه طبيعيان فى الانسان، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع إلى مشاهده حوادث الحياة تترى أمام عينيه، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه. والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول. وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص. وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية.

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم، فما من شىء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلله، فكان قصص تلك العهود مملوءاً بالخرافات والأوهام، دائراً حول الالهة والملوك والابطال والقبائل؛ وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات. وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر، يتمثل فى أساطير الاولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان، وبارتقاء الجماعة العقلى يتخلص العلم رويدا رويداً من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله

وإذا ما ظهر النثر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك، وإن بطل الاعتقاد فى كثير منها، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره، فاتخذ وسيلة لاسداء المواعظ وإذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة. أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان، أو أفواه الأرواح

والجان ، وصيغ أحيانا فى شكل حوار ، كما يرى فى قصص إيزوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لا فونتين وكتاب أميل لروسو ؛ ويتطور القصص الشعرى أيضاً فتظهر الرواية الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصاً جهده من الأساطير ، وإن ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيجا طول العصور .

فاذا اطرد رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النثر الفنى ، خطا القصص إلى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجة ، غايته الوحيدة غاية كل الفنون ، وهى الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالملحمة والدرامه والخطابه ، وسامى به النثر الشعر وباراه جولانا فى ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر فى مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذى كان سائداً من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وللقصص ، إذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعاً بعيد الآفاق ، ويمتع اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاصيلها إلى جانب جلائلها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه إلى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب وقفا على الشعر دون النثر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع فى الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفاً على خاصة المثقفين .

ولذيوع القصص فى الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظير لنشر آرائهم ودعاياتهم ، بتصوير الحال التى يكرهون وإبراز مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملافاتها ، كل ذلك فى أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتسيغه وتقتنع به اقتناعاً كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر فى صورة النصح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى وإبسن وأبانيز وغيرهم ممن كان لهم أكبر الأثر فى الفكر الحديث وأعظم الضلع فى التطور العقلى والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر فى سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة إلى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ماعداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر إلى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادىء ، وذلك برقى السواد الأعظم من الأمة بعد ان كان همجا فى غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادىء الحرية والديمقراطية ، هذا إلى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء

ولم تقتصر القصة فى رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الادب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الأدب ، بل تطورت القصة تطوراً داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخية التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصه البيتية التى تصور المجتمع المتواضع تصويراً شائقا ، والقصة النفسية التى تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الاصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية او الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبليه التى تتنبأ بما سيصير إليه الانسان وتحاول تسديد خطاه إلى مايجب أن ينزع إليه فى مستقبله ، والقصة البوليسية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الآفاقين ورحلاته فى المجاهل

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام ، إلى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضاربة إلى شخصيات ناطقة وسياق منطقى منسجم ، ومن الخرافى والخارق والبعيد إلى الواقع والعلى والحاضر ، ومن الماضى بآلهته وأبطاله وعظائمه إلى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة إلى المعنى المتدبر والتأمل الهادىء والوصف المفصل ؛ وهذه

الصفات التى تكتسبها القصة فى طورها الراقى تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التى هى أسبق من صاحبتها إلى الظهور ، فتهجر الشعر إلى النثر ، والخيال إلى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لها ، لاتكادان تختلفان إلا شكلا وطريقة تناول . فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأقوالهم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك إلا إلى مدى ؛ ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقاً ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابه الروايه التمثيلية والقصة المقروءة

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق إلى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية فى عصر اليزابت على يد شكسبير ومعاصريه رقياً عظيما ؛ وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صاحب كتاب « يوفيواس » وسيلة لشراح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاتب « اطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفى كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعيا

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المهذب الذى يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدا ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن فى كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانسانى ، فانسلخت القصة رويداً رويداً عن المقالة الاجتماعية التى كانت منتشرة إذ ذاك فى الصحف الدورية على أيدى ستيل وإديسون : كانت تلك المقالة تهم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سيرودجر ، تتبعه فى شتى المواقف وتطفه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من تجزع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعى وهلم جرا ، ولم يبق امام الكتاب الذين جاءوا بعد اديسون وستيل ، إلا أن يزيدوا التصميم إحكاماً والحوار تسديدا والشخصيات بروزا

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتنابعت أزياؤها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم ديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتى ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الإصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذى صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، إلى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون ، وإلى غير تلك من ضروب القصص التى لا تستقصى . وفى تلك القصص تناول القصصيون اطراف الحياة المتباعدة وامتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة فى صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها

وفى خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيليه تتطور وتبعث بعثا جديداً ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الاراء والمذاهب ، وظهر فى مجالها اونولد بينيت وبرناردشو وجالزوردى وغيرهم ، وإلى الاخيرين يعزى الفضل فى كثير من الإصلاح الذى طرأ على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية فى الجيل الاخير ، حتى شبه شو بمكنسه كهربائية ذهنية ، تنقى أوضار العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة

وكان للعرب فى جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك فى شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالادب ممتزجاً بالتاريخ ، يظهر فى كتابات الجاحظ والأصمعى والطبرى والاصبهانى ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ؛ وحيكت نوادر جديدة حول اعلام الحب والحرب ، كابن أبى ربيعة وأبى نواس وعنترة ومهلهل ؛ وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن إلى نفوس الخاصة والعامة ؛ ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذى فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ فى كليلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفى رسالة حى بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة إلى القول بأن خصائص القصة الفنية فى هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة فى طورها الثالث الفنى :

باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك فى القرن الرابع ، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التى تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفنى والفكرة الموحدة ، ويبدو كل ذلك فى مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل فى الانجليزية ، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص ؛ واخترع شخصية أبى الفتح الاسكندرى فكان على الأرجح المؤلف العربى الوحيد الذى اخترع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد . ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد إلا نسخاً مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبى الفتح الاسكندرى تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التى تعينها شخصية سير رودجر ديكفرى من تطور القصة الانجليزية .

فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقالات أديسون وستيل فى الأدب الانجليزى : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية ، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه . ولم يبلغ مرحلته التالية ، لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت فى أوج رقى الأدب العربى فى القرن الرابع . وكان أجدر أن تأتى متقدمة فى القرن الثانى مثلا ، فيليها باقى التطور المنشود الذى تلا مقالات أديسون وصاحبه فى الانجليزية ، وما ذاك إلا لنزعة الجمود والتقليد التى كانت دائما مخيمة على الأدب العربى ، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع فى الأشكال والموضوعات ، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ والمعانى .

أضف إلى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب ، فلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه : فالحريرى مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه إلى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه ، بل امتثالا لاشارة بعض الأمراء ممن « أشارته حكم ، وطاعته غنم » كما يقول هو فى مقدمته . ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية فى مجتمع أدباؤه متصلون من مشاكل شعبه لائذون بظل أمرائه

زد على ذلك مكانة المرأة فى المجتمع ، التى كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيدا ، بعد ما كان من امتداد الفتوح واختلاط الأجناس وتفشى التسرى والعبث . فضرب على المرأة الحجاب ، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بغير المرأة لا يخرج القصة الفنية التى تدرس الحب وتقدس الزواج وتشرح العواطف ، وإنما ينتج الشعر المستهتر البذىء كشعر بشار وابى نواس . وقد كان انهاض حال المرأة نصب عينى أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم .

وإلى نزعة التقليد التى كانت تسود الأدب العربى ، كان ذلك الأدب ينزع إلى الصنعة اللفظية : فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات ، ولا غرو ، فاذا كان الأدب قد تخلى إلى حد بعيد عن مشاكل المجتمع ، فلم يبق له من مواد القول إلا النذر اليسير ، فلما أعوزه الافتنان فى المعانى التفت إلى اللاعب باللفظ ، وإلى هذه الزركشة اللفظية قصد الحريرى أول ماقصد فى محاكاته البديع ، ولم يفكر قط فى ابتكار جديد من جهة المعانى والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلى ، فجعل فى كل مقامة شخصين يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقامة بذلك إلى قسمين . دهليز للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التى تبدأ بظهور البطل ، ولم تجىء شخصية بطله فى وضوح شخصية أبى الفتح وتعدد نواحيها

فحالة المجتمع العربى ، ونظام الحكم فيه ، ومنزع الأدب العربى ، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص إلى كماله ، فوقف عند بدء الطور الثالث ، وهو الطور الفنى الصميم ، فعرف الأدب العربى النوادر والأخبار والسير وما إليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمى أو الخلقى ، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفنى ، ولم تسم القصة فى الأدب العربى إلى منزلة عالية كالتى تمتع بها الشعر والخطابة والنقد ، وظل للشعر المكانة الأولى وبقى مستأثراً بأكثر ضروب القول ، ولم يظهر فى القصة من الأعلام أمثال من ظهر فى الشعر والنقد والخطابة ، وترك القصص المطول الحافل بالوصف الاجتماعى والخيالى للعامة

شكرى أبو السعود